أهمية الحماية الجوهرية للمرأة تجاه النظام الدولتي والذهنية الذكورية

" إما الحياة كإنسان حر وشعب حر، وإما الموت "

في الآونة الأخيرة تداول الحديث كثيراً عن كيفية دفاع المرأة عن ذاتها والوقوف في وجه المخاطر التي تهدد أمنها وحريتها من جهة، والسعي الدؤوب لترسيخ مفهوم الحماية الذاتية والجوهرية لديها لتتمكن من خلاله في مواجهة كافة الهجمات التي تتعرض لها والتي جردتها من قوتها وثقتها بذاتها وبالتالي شكلت لديها جدران فولاذية يصعب اختراقها لشدة صلابتها متمثلة بالعادات والتقاليد والأعراف الدينية والقوانين المجتمعية الصارمة، إلى أن رسخ في عقلها وذهنها وباتت مقتنعة بهذه الحواجز وتؤمن بها وتأبى أن تتجاوزها، علماً أن الحواجز الذهنية أشد وطأة وخطورة من المادية منها من جهة ثانية. يقيناً من الذين أقدموا على هذه الممارسات، بأنه حتى لو سنحت الفرصة للمرأة لتتخلص منها فسيصعب تجاوزها لأن العقل قد تم برمجته على هذه الشاكلة ولم يعد يقبل الخروج من قوقعته، وتقبلتها وكأنها حالةٌ طبيعية ولا بد التقيد بها وأنكى من ذلك، باتت المرأة لا ترضى بخطو أية خطوات جدية تخرجها من هذه الدوامة اللا متناهية وإحداث تغييرات في نظامها بأيّ شكلٍ من الأشكال حيث تنظر إليه نظرة ريبةً واستخفاف من الأفكار والآراء التي تدعو إلى تحررها من قيودها.

وانطلاقاً مما تم سرده، كان لابد إلقاء الضوء على أهمية البت في مصطلح الحماية الجوهرية والتي تتضمن الحماية من كافة جوانبها وأبعاده في سبيل ترسيخه على النحو الملائم وبالتالي اتخاذه هدفاً يسعى دوماً لتحقيقه في المجتمع، وبأخص لدى المرأة لأنها الأكثر تضرراً وتاريخها شاهدٌ على ما لاقته من ويلات ومآسي جراء الذهنية الذكورية السلطوية.

فعندما يذكر هذا المصطلح، فأول ما يتوارى للأذهان هو جانبه العسكري البحت وبالتالي تكون ردة الفعل برفضه والعدول عنه ومن مبدأ لا علاقة للمرء به لأنه يتعلق بفئة معينة وهي وظيفتهم واختصاصهم... أما بالنسبة للمرأة فلا تمدها بصلة أصلاً لا من قريب ولا بعيد وحتى مجرد التفكر به هو جرم ويتجاوز العرف والعادات. وهنا لا بد من التوضيح بأن معنى كلمة تجييش التي اتخذتها المرأة لبناء جيشها وتنظيمها الخاص بها بعيدٌ كل البعد عن معنى الجيش الكلاسيكي فهي ليست كما يقال: بأن الجيش عبارة عن شدة، بطش واستبداد، ولكن ما قامت المرأة به من خلال تنظيمها على أساس جيش نسائي منظم، قد أفرغ هذا المصطلح من محتواه، لأنها تملك أخلاق ومبادئ إنسانية، وترفض كل القوانين والمبادئ التي تدل على الجيش بمعناه الكلاسيكي. وقد طورته على كل الأصعدة الفكرية، الإيديولوجية والسياسية بإضافة إلى الصعيد التنظيمي، وبالنتيجة كل هذه الخطوات منحت الفرصة والإمكانية أن تكسب الثقة والعزيمة في بناء حركتها بقوتها وإرادتها الحرة، فالمرأة ستزداد قوةً في تنظيمها وتجييشها، لأنها الضمانة الوحيدة لحمايتها والدفاع عنها ضد كل الهجمات التي تسعى للنيل من وجودها ودورها الفعال في المجتمع.

علماً أنها الأشد ارتباطاً بها لأنها هي التي أورثت هذا المفهوم ورسخته على مر التاريخ وسبب العزوف عنه عائدٌ لما تعرضت له من هجمات شرسة من قبل الذهنية السلطوية والدولتية بغية النيل منها ومن قوة المجتمع أيضاً عبر القضاء على إرادتها، ولا بد لنا أن نذكر بأنها لم تستسلم بسهولة أو ترضخ لهذه الممارسات بل أبدت مقاومة ونضال مرير ولم تقبل للانصياع لأن تكون

عبده، فالتاريخ لا يمكنه إنكار صراعات التي خاضتها المرأة بدءً من صراع أنكي وإينانا، تيامات وماردوخ مروراً بنضال ملكة الصحراء زنوبيا وكليوباترا وسمير أميس ووصولاً إلى بطولات المرأة على قمم الجبال أمثال بسه وظريفة وعدالة خان، زيلان وبيريتان....والكثيرات منهن اللواتي لم يقبلن بالمنطق الذكوري والدولتي الهادفين إلى إمحاء كيانهن وتاريخهن حيث جعلوا من أنفسهم وخلال عدة عقود المتحدثون باسم البشرية جمعاء ولهن الأحقية في تغيير قوانين الطبيعة والإنسان، حيث بدؤوا بالمرأة علماً منهم بأنها النواة الأساسية للحياة والمجتمع وبقتل مفهوم الحماية والدفاع الذاتي لديها سيفنى أيضاً بالضرورة لدى كافة شرائح المجتمع تلقائياً.

ومن مخاضات إفناء المجتمعات من الحماية الذاتية والجوهرية ومن المرأة على وجه الخصوص، خلق صراعات لا متناهية بين الجنسين بحيث أضحيا يسعيان إلى إفناء بعضهما البعض إن لم يكن جسدياً فروحياً يحدث ذلك، وبالتالي يقضيان معاً على الحياة الحرة والشخصية الحرة التي ازدهرت واستمرت بينهما لمئات السنين، لأنهما بالأصل شكلا **(بداية الحياة)**.

فالحماية الجوهرية لا تتم فقط ضد المخاطر الخارجية وحسب، بل تكون ضد المخاطر والمشاكل الداخلية أيضاً إذا يتوجب على المرأة ألا تنسى ذلك، فالدفاع الجوهري هو الدفاع المشروع الذي يعطي الشرعية الكاملة للكائن الحي لحماية ذاته من العدوان الخارجي والداخلي، ولكي يسترجع المجتمع قوته الجوهرية مرة أخرى. فيجب وقبل كل شيء أن تتمكن المرأة من استرجاع قوتها والتحرر من كافة القيود العبودية، والتي بدأت مع ذهنية الرهبان السومريين واستمرت مع الإقطاعية المنسقة وتغير شكلها مع الذهنية الرأسمالية المتسلطة مما أوصل المرأة إلى أن تكون عبده تباع وتشترى في الأسواق الحرة إلى أن تحولت إلى تجارة رسمية يتاجر بها وبشكل علني من قبل الذهنية الرأسمالية، وعلى هذه الشاكلة تم استغلال قيم وجهود المرأة من قبل السلطة الذكورية.

لذا كي تتمكن المرأة من القدرة على التحلي بالحماية الجوهرية والذاتية، يتعيّن عليها بدايةً معرفة حقيقة جنسها وما تمتلكه من قدرات والإمكانيات، والسبب لأنه تم إقناعها بضعف جنسها لكي يسهل السيطرة عليها كما جعلوها تتيقن بتفكيرهم الرجعي والقائم على أساس أن المرأة لا تستطيع حماية نفسها، فكيف ستتمكن من الدفاع عن شعبها ووطنها الأم ؟؟؟

وانطلاقاً مما تم ذكره يتوجب على المرأة أن تبدأ بتنظيم ذاتها لأن التنظيم يعتبر مسألة حياتية ومصيرية ولا يمكن الاستخفاف بها، إضافة إلى تأسس مؤسساتها التنظيمية لأجل توعية المرأة وإعلاء جانبها المعرفي واتخاذه أساساً لها. فبدون معالجة الواقع الذهني والإيديولوجي والتنظيمي وكذلك الاستعماري المحاك حول المرأة يصعب تجاوز هذه الإبادات والمخاطر التي تحدق بها من كل جانب، لأنه من غير المستحيل أن تقوم الحلول المعتمدة على المفاهيم الذكورية التسلطية الدولتية بإحلال الحرية والسلام للمرأة والمجتمع. ولأن المقاومة هي منبع الحياة دوماً لكافة الكائنات البشرية، وعليه إن لم تقاوم المرأة فستكون حتماً ضحية لذهنية السلطوية الذكورية الناكرة لإرادتها منذ مئات السنين.